البيوت — تختار الاراضي الجافة الصلبة لبناء المنازل عادة وتبنى بحيث تتعرض غرفها للشمس بعيدة عن المستنقعات والاماكن الرطبة . وسكن الجبال عندهم من وسائل الصحة والنشاط والشجاعة والجمال . وهندسة المنازل على مثال آثار المنازل التي وجدت في بمباي ومن احسن القواعد الاجتماعية عند المسلمين مراعاة حرمة الجوار والمثل العربي يقول اسأل عن جارك قبل دارك

على ان نزح المراحيض لا يعنى به كما هو الواجب فلذلك كثيرًا ما تنشأ الامراض عن هذا الاهمال . ولكنهم اخذوا يجرون على النظام الحديث في ذلك

دفن الموتى — من عوائد الشرقيين القديمة دفن الموتى حالاً بعد موتهم فان ذلك يقلل ابواب العدوى ويخفف لوعة الحزن على الميت ولعل السبب الاعظم في ذلك ان لا يرى اهل الميت ما يطرأ على جثته من الانحلال السريع في الاقاليم الحارة فيزيد ذلك كرب نفوسهم ويثير اشجانهم

واليهود والمسلمون يغسلون موتاهم بالماء والصابون ويطيبونهم احيانًا بالطيوب ثم يكفنونهم ويدفنونهم في قبور عمقها ٥ اقدام على الغالب

شعر البارودي

كان الشعر الى فجر القرن الخامس كأنما يتخطى روضة فينانة أخذ من جانبها الى ما يقابله فكان في مبتدئه ذلك الحائط الخشن مما هو كالسور والحياطة لما وراءه وذلك عصر البداوة على ثقلبات اللغة فيه فان غاية ما كان من امر الشعر يومئذٍ ان يترقرق على الالسنة الفاظًا عذبة واكثره كشجر السرو له زواء وما له ثمر . وللعرب في ذلك عذرهم الذي لا يُدفع ما دامت تلك ارضهم وذلك مقدار ما تناولوه من بساط العيش وما تقلبوا فيه من اعطاف العمران

غير ان السماء بما ينزل منها وما يعرج فيها وما تنير به كانت لا تزال مرمى ابصارهم ومطرح اشعتها فلم يعدموا جهة ينفذ منها النسيم الى افئدتهم فيختلج فيها خاطر رائع او وصف بديع . وكذلك ما خلق الله بينهم من مَهْوَى القلوب ومسرح الابصار . وما احسب شاعرًا كان اشهر فيهم من فارس يصف حربًا او بليغ ينعت سربًا او متوجع يشكو قلبًا

وما زال الشعر يتخطى من تلك الروضة وكل جيل منهُ يقف من الظل والماء والرياحين عند ما لم يجد سلفهُ من صنوف ذلك حتى خرج آخرهُ من الجانب الثاني واذا هو بالطلول في المدائن والدِمَن في الرياض والبُرى تقعقع بين الكؤوس والابارين والهجير يشوي الوجوه في ظل الورد والرياحين الى غيرها مما احالهُ عن وضعهِ وخفضهُ بعد رفعهِ وجعلهُ وخمًا ثقيلاً لا

يساغ ولا يهضم . ولكن تلك العصور لم تخلُ من الانفاس العذبة فان ايام الصيف بما يخل من طولها ويذيب الادمغة من حرها لا تخلو بنفحة يخفق بها منديل الاصيل او يهتز لها ذيل السحر . ومن تلك النسمات كان شعر البارودي رحمهُ الله على حين لم يكن في مصر الاَّ النكباء والسموم فقد كان صاحب الوقت يزعم اهلهُ محمود افندي صفوت وهو قد اخذ لواءهُ من الدرويش وانضوى اليهِ مثل البيتي والبخاري والاياري وابو النصر والنديم ومجدي ورفاعه وسواهم

وان قُصارى ما يكون من ابرعهم شعرًا وابدعهم صنعة اذا نفض رأسهُ وزاد في حركة قلبهِ وضرب على جبهتهِ بكلتا يديهِ ان يعطس ببيت فيهِ نكتة من البديع اكثر ماتكون من نحو حسن الاخذ والتضمين والاقتباس الى ما يماثلها . وكان ابتداء الشاعر في تلك الايام ان يأخذ عن الطبقات الدنيا فينشأ منها اذا كان موفقًا او يكون ادنى بحكم الطبع . ولكن البارودي كان من صفاء الفطرة ونقاء الذهن وكمال الاستعداد ونصيحة اهل البصر بحيث وجد السبيل فابتدر الغاية

ومن اعجب امرهِ ما تراهُ فيما كتبهُ عنهُ الشيخ حسين المرصفي منذ ثلاثين سنة وهو استاذهُ قال : " انهُ لم يقرأ كتابًا في فن من فنون العربية غير انهُ لما بلغ سن التعقل وجد من طبعهِ ميلاً الى قراءة الشعر وعملهِ فكان يستمع بعض من لهُ دراية وهو يقرأ بعض الدواوين او يقرأ بحضرتهِ حتى تصور في برهة يسيرة هيآت التراكيب العربية ومواقع المرفوعات منها والمنصوبات والمخفوضات حسبما تقتضيهِ المعاني والتعلقات المختلفة فصار يقرأ ولا يكاد يلحن . قال وسمعتهُ مرة يسكن ياء المنقوص والفعل المعتل بها المنصوبين فقلت لهُ في ذلك فقال هو كذا في قول فلان وانشد شعرًا لبعض العرب فقلت تلك ضرورة وقال علماء العربية انها غير شاذة . ثم استقل بقراءة دواوين مشاهير الشعراء من العرب وغيرهم حتى حفظ الكثير منها دون كلفة واستثبت جميع معانيها ناقدًا شريفها من خسيسها واقفًا على صوابها وخطإها مدركًا ما ينبغي وفق الكلام وما لا ينبغي " اه . وهذا ليس باعجب من أمر الشاعر ابن حمدان المعروف بالخباز البلدي فقد كان اميًّا وكان الشعراء يذهبون اليهِ في مخبزهِ يتلقون عنهُ ويساجلونهُ وشعرهُ مع ذلك اطروفة نادرة كقولهِ من ابيات

اقلُّ ما بيَ من حبيك انَّ يدي ... اذا دنت من فؤادي كاد ينضجها

وقولهُ

ياذا الذي امسيخ لا والدٌ ... لهُ على الارض ولا والدهْ

قد مات من قبلهما آدم ... فاي نفس بعدهُ خالدهْ

ان جئت ارضًا اهلها كلهم ... عور فغمض عينك الواحدهْ

وعلى ما رأيت من كلام المرصفي جاء شعر المترجم مونق الروي متلائم النسج حسن المعرض

مطروح العبارة الى حيث تشير القضيب ولو ان الله اعطاهُ مع ذلك خيال حكيم كالمتنبي او غيره لكان اشعر من سمعت اذن شعرهُ . وانا وان كنت أُجل الرجل لحسن صحبتهِ ولطف محادثتهِ وبشاشة محضرهِ وادبهِ غير اني في كتابتي عنهُ لا اكون كذلك الاعرابي الذي بلغ من حبهِ ان يرى الشمس على حائط من يهوى احسن منها على حيطان جيرانها . .

وللسبب الذي قدمتهُ لم يكن شاعرنا كامل التصرف في فنون المعاني وان كان اشعر من جميع معاصريهِ بلا مراء غير انهُ أتم ذلك النقص بما اتقن من جمال الصنعة وبديع الرواء فلو انك جرَّدت اكثر معانيهِ من الفاظها وما أحاطها بهِ من الصياغة لرأيت مالا ينفرد بهِ بل ما ربما انفرد بغيرهِ سواهُ . اليك مثلاً قولهُ في التذكر

يا ذكرة أبصرتُ في مرآتها صور التمني
علقت حبالة خاطري فيها بمكحول اغنِ

في البيتين من حسن الصنعة وحذقها ما يأخذ بالقلب ولكن النَّفَس قد هبط في البيت الثاني وانقطع في اخرهِ وسكن القلب فجأة لان الشعر في ذلك غير تام

وبعضهم يرى مثل ذلك من اجمل الكلام اخذاً بقول الشيخ عبد القاهر الجرجاني في حد البلاغة انها ليست في اللفظ ولا في المعنى ولكنها في الاسلوب . ويفهمون من الاسلوب انهُ مجرى الكلام وسياقهُ ولكني لا أدري كيف هذا والاسلوب لا يسوقهُ غير المعنى فالبلاغة في الحقيقة هي التصرف في المعاني المنصرفة الى الاغراض وذلك يتناول الالفاظ لان المعاني لا تقوم بغيرها ويتناول الاسلوب لانهُ طريق تلك المعاني التي تنصرف فيها

اما نمط البارودي في النظم فهو غاية ما دارت لهُ الالسنة . عذوبة تكاد ترشف وجزالة تلعب بالنفس وسلاسة يستريح في ظلها القلب وتستنشق نسيمها الكبد فهو الغدير اعذب ما يسكن والمرآة اصفى ما تكون ولشدة رغبتهِ في ذلك النمط وانصرافهِ اليهِ بجملتهِ جعلهُ المرجع في اختيار ما اختارهُ من شعر الشعراء في مجموعاتهِ التي سماها باسمهِ فحيث انتهى الى اللفظة الممتلئة رواء اسرع فاقتطفها بقلمهِ . كنت ذات عشية عندهُ فرأيت الى جانبهِ جزءاً من ديوان مهيار الديلمي فتناولتهُ وجعلت اقرأ قصيدة كان قد علَّم ما اختارهُ منها وجملة ذلك أبيات فسألني أن أعرِّفهُ رأيي فيما أختارهُ منها فلم اذكر لهُ غير بيت واحد كان فخم المعنى ولم تكن تلك القصيدة مما يضيءُ فيهِ ذهن مهيار فضحك رحمهُ الله . وكذلك جرى في تلك المجموعات

وكان يقدم أبا تمام على المتنبي فسألني في ذلك مرة فتملت ان الذي ذكرهُ نقَّاد الكلام ان المعاني المخترعة لابي تمام ثلاثة بعد ان عدها بعضهم ثلاثين والمتنبي وان كان قد افتضح في سرقاتهِ

الاَّ ان لهُ ما ليس لابي تمام وذلك في بعض معانيهِ على ان كليهما قد تعثر في الفاظ كثيرة. فقال ولكن شعر ابي تمام اجزل وصنعتهُ اوضح واتم. واسيت يومئذٍ ان اذكر له أن بعض الاعراب سمع قصيدة ابي تمام "طلل الجميع لقد عفوت حميدا" فقال ان في هذه القصيدة اشياء افهمها واشياء لا افهمها فاما ان يكون قائلها أشعر من جميع الناس واما ان يكون جميع الناس اشعر منهُ

وانا ذاكر طرفًا من شعرهِ ونتفًا من بدائعهِ وهو قليل كما اخبرني رحمهُ الله فقد ذكر لي من اشهر انهُ لا يتجاوز ثلاثة آلاف بيت. قال من قصيدة يعارض بها النواسي في قولهِ "أجارة بيتينا ابوكِ غيورُ"

تلاهيت الاَّ ما يهن ضميرُ ... وداريت الاَّ ما ينم زفيرُ
فيا قاتل الله الهوى ما اشدهُ ... على المرء اذ يخلو بهِ فيغيرُ
تلين اليهِ النفس وهي أبية ... ويجزع منهُ القلبُ وهو صبورُ
لطال عليَّ الليل حتى ملتهُ ... وعهدي بهِ فيما علمت قصيرُ
ألا فرحا الله الصبي ما ابرهُ ... وحيًّا شبابًا مرَّ وهو نضيرُ
اذ العيش افواف ترف ظلالهُ ... علينا وسلسال الوفاء غميرُ
واذ نحن فيما بين اخوان لذة ... على شيم ما ان بهن نكيرُ
تدور علينا لكأس بين ملاعب ... بها اللهو خدّنٌ والشباب سميرُ
فألحاظنا بين النفوس رسائل ... وريحانا بين الكؤوس سفيرُ
عقدنا جناحي ليلنا بنهارنا ... وطرنا مع اللذات حيث تطيرُ
وقلنا لسافينا أدرها فانما ... بقاء الفتى بعد الشباب يسيرُ
فطاف بها شمسيةٌ لعبيةٌ ... لها عند الباب الرجال ثؤورُ
اذا ما شربناها اقمنا مكاننا ... وظلّت بنا الارض الفضاء تدورُ

وهذا البيت على ما تراهُ من الرونق والحسن هو بيت القصيدة وانا اغتفر لهُ ما فيهِ فقد تقدم انهُ نشأ على الحفظ ومن كان ذلك مبدأهُ فقلما يسلم من مثل هذا فان البيت لأعرابي كان سائحًا فوقع اليهِ ان امرأتهُ تزوجت فقال من ابيات

أتاني يظهر الغيب أن قد تزوجت ... فظلت بي الارض الفضاء تدورُ

ويحسن بي توفية للفائدة ان اذكر هنا ابياتًا من قصيدة لابن دراج الاندلسي المشهور المعروف بالقسطلي قالها في معارضة قصيدة النواسي المذكورة ومنها يخاطب امرأتهُ

ألم تعلمي ان الثواء هو الثوى وان بيوت العاجزين قبورُ
ذريني اردْ ماء المفاوز آجناً الى حيث ماء المكرمات غمرُ
فان خطيرات المهالك ضمّنٌ لراكبها ان الجزاء خطيرُ
ولما تدانت للوداع وقد هفا بصبريَ منها أنةٌ وزفيرُ
تناشدني عهد المودة والهوى وفي المهد مبغوم النداء صغيرُ
عييٌ بمرجوع الخطاب ولفظهُ بموضع اهواء النفوس خبيرُ
تبوّأ منوع القلوب ومهدت لهُ أذرع محفوفة ونحورُ
عصيت شفيع النفس فيهِ وقادني رواح لتدآب الشرى وبكورُ
وطار جناح البين بي وهفت بها جوانح من ذعر الفراق تطيرُ

فلا تجد احسن من وصفهِ نطق الصغير في قولهِ (عييٌ الخ) . وقال البارودي على روي قصيدة الشريف "لغير العلا مني القلا والتجنب"

سواي بتجنان الاغاريد يطربُ وغيريَ باللذات يلهو ويعجبُ
وما انا ممّن تأسر الخمر لبهُ ويملك سميع اليراع المثقبُ
ولكن اخو همٍّ اذا ما ترجحت بهِ سورة نحو العلا راح يدأبُ
بعيد مناط الهم فالغرب مشرقٌ اذا ما رمى عينيهِ والشرق مغربُ
لهُ غدوات يتبع الوحش ظلها وتغدو على آثارها الطير تنعبُ
خلقت عيوفا لا أرى لابن حرة عليَّ يداً اغضي لها حين يغضبُ
فلست لامر لم يكن متوقعاً ولست على شيء مضى اتعتبُ
اسير على نهج يرى الناس غيرهُ لكل امرىء فيما يحاول مذهبُ
واني اذا ما الشك أظلم ليلهُ وامست بهِ الاحلام حيرى تشعّبُ
صدعت حفافي طرّتيهِ بكوكب من الرأي لا يخفى عليهِ المغيّبُ
وبحر من الهيجا خضتُ عجاجهُ ولا عاصم الاّ الصفيح المشطّبُ
تظل بهِ حمر المنايا وسودها حوامس في الوانها تتقلّبُ
توسطتهُ والخيل بالخيل تلتقي وبيض الظبى في الهام تبدو وتغربُ
فما زلت حتى بيّن الكرُّ موقفي لدى ساعة فيها العقول تُغيّبُ
لدن غدوةً حتى اتى الليل والقنى على ساطع من غيهب النقع غيهبُ

ثم انتقل من هذا الوصف الرائع الى وصف اللهو والقنص والتغلغل في الملذات وعلى ذلك

اكثر قصائده المطلقة

وقال من الفخر كلمة أخرى في روي قصيدة ابي فراس "اراك عصي الدمع شيمتك الصبر"

واني امرؤ لولا العوائق اذعنت ... لسلطانه البدو المغيرة والحضرُ
من النفر الغرّ الذين سيوفهم ... لها في حواشي كل داجية فجرُ
اذا استلّ منهم سيدٌ غرب سيفه ... تفزّعت الافلاك والتفت الدهرُ
لهم عُمُدٌ مرفوعة ومعاقل ... والوية حمر وافنية خضرُ
ونار لها في كل شرق ومغربٍ ... لمدّرع الظلماء السنة حمرُ
تمدُّ بدًا نحو السماء خضيبة ... تصافحها الشعرى ويلثمها الغفرُ
وخيل يرجُّ الخافقين صهيلها ... نزائع معقود باعرافها النصرُ
معوّدة قطع الفيافي كأنها ... خدارية فتخاء ليس لها وكرُ
اقاموا زمانًا ثم بدّد شملهم ... اخو فتكات بالكرام اسمهُ الدهرُ

ومن سحر الحلال هذه الابيات يصف بها الحرب قالها منذ ثلاث وثلاثين سنة

اذا نحن سرنا صرّح الشر باسمهِ ... وصاح القنا بالموت واستقتلَ الجندُ
فانت ترى بين الفريقين كبّة ... يحدث فيها نفسهُ البطل الجعدُ
على الارض منها بالدماء جداول ... وفوق سراة النجم من نقعها لبدُ
اذا اشتبكوا او راجعوا الزحف خلتهم ... بحورًا توالى بينها الجزرُ والمدُّ
تشلُّهم شلُّ العطاش وتنتْ بها ... مراغمة السقيا وماطلها الوردُ
وتقع كلج البحر خضت غمارهُ ... ولا عاصم الاّ المناصل والجردُ
صبرت بهِ والموت يحمرُّ تارة ... ويغلُّ طورًا في العجاج فيسودُّ
فما كنت الاّ الليث انهضهُ الطوى ... وما كنت الاّ السيف فارقهُ الغمدُ
صؤولٌ وللابطال همس من الوغى ... ضروبٌ وقلب القرن في صدره يعدوُ
فما مهجة الاّ ورمحي ضميرها ... ولا لبة الاّ وسيفي لها عقدُ

ولهُ من ابيات

اصبحت لا أستطيع الثوب اسحبهُ ... وقد اكون وضافي الدرع سربالي
ولا تكاد يدي تجري شبا قلمي ... وكان طوع بناني كل عسالِ
فلو تراني وبردي بالندى لصق ... حسبتني نرخ طير بين ادغالِ
غال الردى أبويهِ فهو منفردٌ ... في جوف خضراء لاراعٍ ولا والي

راجعت فهرس آثاري فما لمحت بصيرتي فيهِ ما يزري بأعمالي

ومن قولهِ في الغزل

هل من فتىً ينشد قلبي معي بين خدور العين بالاجرعِ
كان معي ثم دعاهُ الهوى فمر بالحي ولم يرجعِ
فهل اذا ناديتهُ باسمهِ يفيق من سكرتهِ او يعي
فانتِ ياعصفورة النخلى بالله غني طرباً واسجعي
وانتِ يانسمة وادي الغضا مريحي يريّاك على مضجعي
وانتِ ياعين اذا لم تفي بذمة الدمع فلا تهجعي

ولست أخشى ان اقول انهُ لم يكن واسع الحيلة في هذا النوع من الشعر الاَّ ابيات مبثوثة في تضاعيف اقوالهِ. ولهُ من قصيدة يصف النجوم

أرعى الكواكب في السماء كأنني لي عند النجوم رهينة لم تدفعِ
زُهر تألق بالفضاء كأنها حببٌ تردد في غدير مترعِ
وكأنها حول المجرّ حمائم بيض عكفن على جوانب مشرعِ
والليل مرهوب الحمية قائم في مسحهِ كالراهب المتلفعِ
حسب النجوم تخلفت عن امرهِ فرحى لهن من الهلال بأصبعِ

ولما سبقت اليهِ بشارة العفو عنهُ في سيلان بقي بين الشك واليقين فذكر هذا التردد في بيت يقال انهُ امير شعرهِ وهو

أحسُّ في قلبي دبيب المنى والمح الشبهة في خاطري

والبيت حيث تراهُ من تصوير الوجدان ودقة الوصف . وكنت سألتهُ مرةً ان يوقفني على شيءٍ من شعرهِ الحديث فقال . ان عنترة يقول " هل غادر الشعراء من مُتردَّمِ " وهذا عيبٌ علينا (كلمةٌ بحروفها رحمهُ الله) ولذلك شرعت في نقض قصيدتهِ ثم انشد اياتاً مطلعها

كم غادر الشعراء من متردمِ

يقول منها في وصف مصر

هي جنة الحسن التي زَهَراتها حور المها وهزار أيكتها في

وهذا ما اتسع المقام لاختيارهِ من ذلك الدر النظيم وامتد النفس لذكرهِ من امر ذلك الرجل العظيم والله المسئول ان يجزيهُ عن اللغة واهلها باحسن مما أحيا من فضلها

طنطا مصطفى صادق الرافعي